Route Educational & Social Science Journal

Volume 6(4) ; March 2019

Artical History

Received/ Geliş	Accepted/ Kabul	Available Online/yayınlanma
26. 12 .2018	29.1.2019	15.3.2019

دجلة والفرات دليل حضارة وادي الرافدين

الدولة الأشورية أنموذجاً

The Tigris and the Euphrates are Guides to the Civilization of the Mesopotamia:

The Assyrian State as a Sample

الاستاذ المساعد الدكتور

صلاح عباس حسن

Assist. Prof. Dr. Salah Abbas Hassan

المقدمة

كفل نهر دجلة والفرات لأهل العراق الاقدمين خصباً وكفاية ، ووفر لهم نصيباً كبيراً من الاستقرار في المعيشة والسكن ، الامر الذي ساعد حضاراتهم الاولى على ان تنضج في عصور مبكرة، لذا كان للماء دور حيوي في تقدم حياة الانسان وبقائه وتطور وجوده وحضارته وتوصلت الدراسات والنصوص السومرية والسامية فيما التكوين الى ان المياه الازلية كانت أهل الوجود ورمز الحضارات حيث اعتقد السومريين ان البحر هو الام التي ولدت السماء والارض ، لذلك نعتت الحضارة السومرية الماء بالتعظيم والتقديس وعبرت عنها برموز صور مختلفة على الالواح الحجرية وواجهات المعابد واتخذت شعاراً لوادي الرافدين، كما ان الساميون اتخذوا الاناء الفوار شعارا لهم ينبع منه مجريات رئيسان لدجلة والفرات ، اما عند الاشوريين فقد تم تحوير شعار الاناء الفوار بحيث يلائم الظروف الطبيعية المحيطة بالوطن الاشوري ، فحل القرص المجنح الذي يرجع تاريخه الى أوائل الالف الاول (ق.م) محل الاناء الفوار وهو رمز انصباب مياه الامطار وارواءها للأراضي فالري والحضارة وحماية تقدم الحياة سلسلة مترابطة فحيثما وجد الماء ، ازدهرت الحضارة وتقدمت ، وقد ابتكر

الانسان العراقي الذي عاش بين نهري دجلة والفرات الحرف المكتوب وهذا يعد اعظم انجاز واوسع خطوة في ارض الرافدين نحو بناء الحضارة وتشيد صرحها وشكل نقطة تحول بارزة في تاريخ البشرية بشكل عام ومسيرة الحضارات القديمة التي شهدتها منطقة الشرق الادنى.

ان اقدم الحضارات الانسانية ظهرت ونمت في الشرق الادنى القديم ، مما يعطيها اهمية في تاريخ الانسانية، حيث توصل الى عدد كبير من الاسس والنظم والمبادئ والتقاليد التي اصبحت في مجموعها اساس لفكرة التطور الانساني ، ولم يقف فضل مدنيات الشرق القديم على تقدم اهلها في تلك الميادين فحسب بل كانت هذه المنطقة مهدا للديانات، فضلا عن ذلك ان فيضانات النهرين مع ما حملته للعراق من خصب ورخاء واستقرار ظلت قبل ان تخفف الجسور ومشاريع الري والزحف من وطاءتها وحدتها لعدم انتظام مواسمها ولشدة اندفاعها حتى اصبحت عبارة (زوبعة الفيضان) مثلا استخدمه ادباء العراق القدماء للتعبير عن كل امر كاسح مدمر. ويتضح من دراسة مقومات البيئة في العراق القديم الى بذل الكثير من الجهود في محاولة التحكم في قوى الطبيعة لصالح حياته متخذاً من ذلك صوراً كالإعصار والزوابع والطوفان وكثرة مواسم الفيضان .

ان الحديث عن تلك التأثيرات بصورة عامة حديث طويل ومتشعب لذا كان حديثاً عن بلاد اشور أنموذجاً، التي اضطرت اهل البلاد التي نشأت في هذه الحضارة ان يحيوا حياة عسكرية شاقة ارغمتهم عليها القبائل الجبلية واستولوا على المدن التي كانت مهدهم الاول في عيلام وسومر واكد وبابل وتغلبوا على فينيقية ومصر وظلوا مائتي عام يسيطرون على بلاد الشرق الادنى ، ان دراسة المقومات البيئية في العراق القديم يتضح انها كانت غير منتظمة بل ومتضاربة وقد انعكس هذا التضارب على كافة الظواهر الكونية سواء الجوية او المائية او الارضية، وافضت خاصية الامتداد العرضي والطولي الى امكانية قيام وحدات سياسية وحضارية كثيرة متفرقة مستقلة بعضها عن بعض مما ادى الى قلة احساس اهلها بالضرورة الملحة الى التكاتف السياسي وتامين طرق تجارتها.

المحور الاول : الاثر السياسي والامني

اولاً :– الجانب العسكري:– تشابهت تأثيرات الأنهار الكبيرة والصحراوات الواسعة في العراق القديم مع تأثيرات أمثالها في مصر في بعض أمورها واختلفت عنها في بعض آخر. فقد كفل نهرا دجلة والفرات لأهل العراق الأقدمين خصبًا وكفاية، ووفرا لهم نصيبًا كبيرًا من الاستقرار في المعيشة والسكن، الأمر الذي ساعد حضاراتهم الأولى على أن تنضج في عصور مبكرة لا تبعد كثيرًا عن العصور التي نضجت فيها الحضارة المصرية الأولى. وعمل النهران وفروعهما على تيسير الاتصالات المكانية والمواصلات المائية وإتاحة فرص

الارتقاء بصناعة السفن منذ فجر التاريخ العراقي القديم أو في أواخر الألف الرابع ق. م. ولكن الملاحة في النهرين لم تكن على الرغم من ذلك مأمونة دائمًا، وذلك نتيجة لشدة انحدارهما وسرعة جريان تياراتهما في أجزائهما العليا بعامة، وبطء جريانها وكثرة مناقعهما في أجزائهما الدنيا بخاصة، وذلك بحيث ظلت عملية عبور النهرين في بعض أجزائهما تحتسب من الأمور الشاقة التي رددت النصوص العراقية القديمة مخاطرها حتى في العصور الآشورية المتأخرة ذاتها[١]. وقد تشتد هذه الفيضانات في غير فترات الحاجة الملحة إليها، بحيث قد تعنف خلال مواسم الحصاد، أو تعنف في أوائل الصيف حيث تؤدي شدة الحر والتبخر إلى سرعة تسرب ماء الري وجفافه من الأرض، لذلك اجمع الباحثون على ان نظام الري كان على راس العوامل المؤثرة في نشوء تلك الحضارة وتطورها فكان الري والسيطرة على الانهار العامل الحاسم الذي تفاعل مع جهود الانسان نتج عن ذلك اولى الحضارات البشرية في التأريخ ويمكن القول ان نشؤ الحضارة لم يكن تلقائيا بل كان للجهود البشرية الشاقة في ترويض هذه البيئة النهرية [٢]وأفضت خاصية الامتداد العرضي الكبير للأراضي التي تتوسط النهرين والأراضي الواقعة على جانبيهما والمترامية على روافدهما وفروعهما "مثل الزاب الأكبر والزاب الأصغر وديالي والكرخة وبالخ والخابور .. "، فضلًا عن ظاهرة الامتداد الطولي الكبير للمناطق العراقية الواقعة بين الخليج العربي وبين جبال أرمينيا وزاجوراس، إلى إمكانية قيام وحدات سياسية وحضارية كثيرة متفرقة مستقلة بعضها عن بعض، نعمت كل منها بأسلوب حكمها الخاص في ظل دويلات المدن لفترات طويلة، ولكن تفرقها هذا أدى من ناحية أخرى إلى قلة إحساس أهلها بالضرورة الملحة إلى التكاتف السياسي والترابط القومي فيما بينها، إلا بوحي المطامع الإقليمية الطارئة التي تمثلت في أغلب أحوالها في رغبة بعض دويلات المدن في تعويض شح مواردها على حساب جيرانها، وتأمين طرق تجارتها إذا سلكت سبلها في أقاليم أخرى قريبة منها. وعملت هذه الأوضاع مع غيرها، على ما شهد به تاريخ العراق القديم من أن سياسته العامة لم تتطور من الإقليمية إلى مرحلة الوحدة السياسية الكاملة والقومية الشاملة والاتساع الخارجي إلا في عصور متأخرة نسبيًا "منذ عصر الأكديين" وبغير استقرار.ونشأت الدولة الجديدة حول أربع مدائن ترويها مياه نهر دجلة وروافده، وهي أشور ومحلها الآن قلعة شرغات، وأربلا وهي إربل الحالية، والكلف وهي الآن نمرود ونينوى وهي قويونجك، على الضفة المقابلة لمدينة موصل مدينة الزيت، وقد عثر المنقبون في أطلال أشور على شظايا من السبج- الحجر الزجاجي الأسود- وعلى سكاكين وقطع من الفخار الأسود عليها رسوم هندسية توحي بأنها من أصل آسيوي [٣]. وكل هذه من مخلفات عصر ما قبل التاريخ. وكشفت بعثة أثرية حديثة في تبي جورا، بالقرب من موقع نينوى عن بلدة يَرُد كاشفوها الفخورون تاريخها إلى عام ٣٧٠٠ ق. م رغم ما فيها من هياكل وقبور كثيرة، وأختام أسطوانية متقنة النقش، وأمشاط وحلي، ورغم ما عثروا عليه فيها من نرد هو أقدم نرد عرف في التاريخ[٤]. وتلك مسألة جديرة بتفكير المصلحين في هذه الأيام. وخلع الإله أشور اسمه على مدينة من مدنها (ثم على القطر كله آخر الأمر)؛ وفي

هذه المدينة كان يسكن أقدم ملوك هذه الأمة، وظلوا يقيمون بها حتى اضطروا بسبب تعرضها لحر الصحراء اللافح ولهجمات جيرانهم البابليين إلى إنشاء عاصمة ثانية لهم في مكان أقل من العاصمة الأولى حرارة. وكانت هذه العاصمة الثانية هي نينوى؛ واسمها هي أيضا مأخوذ من اسم إله من آلهتهم هو الإله نينا إشتار الآشوريين. وكان ثلاثمائة ألف من الأهلين يسكنون في نينوى أيام مجدها في عهد أشور بانيبال كما كان ملوكها- ملوك الأرض العامة- يتلقون الجزية من جميع بلاد الشرق القريبة. وكان الأهلون خليطا من الساميين الذين وفدوا إليها من بلاد الجنوب المتحضرة (أمثال بابل وأكد)؛ ومن قبائل غير سامية جاءت من الغرب(ولعلهم من الحيثيين أو من قبائل تمت بصلة إلى قبائل نيتاتي)؛ ومن الكرد سكان الجبال الآتين من القفقاس[٥].وأخذ هؤلاء كلهم لغتهم المشتركة وفنونهم من سومر، ولكنهم صاغوها فيما بعد صياغة جديدة جعلتها لا تكاد تفترق في شيء عن لغة أرض بابل وفنونها. بيد أن ظروفهم الخاصة باعدت بينهم وبين النعيم المخنث الذي انحدر إليه البابليون[٦].وتاريخهم هو تاريخ الملوك والرقيق، والحروب والفتوح، والانتصارات الدموية والهزائم المفاجئة. واغتنم ملوكهم- الكهنة الأوائل- وكانوا أقيالا خاضعين لأهل الجنوب- سيطرة الكاشيين على بابل فاستقلوا عنها؛ ولم يمض إلا القليل حتى ازدان أحدهم باللقب الذي ظل ملوك أشور يتباهون به طول عهدهم وهو "الملك صاحب الحكم الشامل". ويبرز أمامنا من بين هؤلاء الأقيال الخاملي الذكر أفراد تهدينا أعمالهم إلى معرفة السبيل التي سلكتها بلادهم في نمائها وتطورها [٧].

مراحل العهد الاشوري (٢٠٠٠- ١٥٢١ق.م)

١- **العهد الأشوري القديم**: عثر في خورسباد على قائمة بأسماء ملوك أشور يمكن أن نعدها مناظرة لقائمة الملوك السومرية، وهي تعطينا أسماء ١٧ ملكًا تذكر أنهم كانوا يعيشون في الخيام؛ مما يدعو إلى الاعتقاد بأن هؤلاء كانوا يمثلون ملوك فجر التاريخ الأشوري، ومع أنها تورد السلالات التي تضمنت أسماء هؤلاء الملوك متتابعة؛ إلا أن من المرجح أن بعضًا منها على الأقل كانت تعاصر بعضًا آخر. ومن الملاحظ أن عددًا من الأسماء القديمة في هذه القائمة مثل: "توديا"، "أوشبيا"، "سولولي"، "كيكيا" لا تدل على أصل سامي أو سومري؛ بل هي أسماء هندو أوروبية ربما كانت حورية أو سوبارية، وقد خضع الأشوريون لحكم ملوك أسرة أور الثالثة[٨]، وبعد سقوط الإمبراطورية السومرية أصبحت أشور مثل كثير من المدن الأخرى مستقلة وبدأ "بوزور – أشور الأول" الذي حكم حوالي سنة ٢٠٠٠ ق. م. سلسلة جديدة من الملوك الذين يحملون أسماء أكدية بحتة. وقد ترك لنا اثنان

من هؤلاء "إيلوشوما، إيروشوم الأول" نصوصًا تدل على بناء معابد للآلهة أشور وأداد وعشتار في المدينة، كما أن من المعروف أن "إيلوشوما" توغل في جنوب بلاد النهرين أثناء حكم "شمشي – داجان" ملك

أيسين "١٩٥٣-١٩٣٥ق. م.". ومن المحتمل أنه وسع في مملكته حتى شملت نينوى على بعد ٦٠ ميلًا شمال أشور؛ ولكن المؤسسين الحقيقيين لقوة أشور كانوا من الساميين الغربيين الذين تدفقواعلى شمال وجنوب بلاد النهرين في القرون الأولى من الألف الثاني ق. م. حيث بدأ أحد زعماء الأموريين في الاستقرار في المنطقة ما بين نهري الخابور ودجلة وحكمها خلفاؤه كأتباع للأشوريين، ثم تمكن أحدهم[٩] من الاستيلاء على "أشور" واعتلاء العرش، وفي نفس الوقت تقريبًا تمكن أموري آخر من أن يصبح ملكًا في ماري، ومنذ ذلك الحين ارتبط مصير المملكتين الشماليتين العظيمتين، كل منهما بالأخرى؛ فقد بدأت بينهما علاقات حسن الجوار أولًا ولكنها سرعان ما انفصمت وتمكن الأشوريون من وضع يدهم على ماري بعد أن اغتيل ملكها "ياهدون – ليم". وكان الملك "شمشي أدد" الذي استولى على ماري في بدء حياته خارجًا على القانون؛ فبعد أن أصبح أخوه خليفة لوالده على عرش أشور فَرَّ إلى الجنوب وجمع قوة من المرتزقة، استولى بها على مدينة إيكالاتوم في وسط دجلة "لم يمكن التعرف عليها بعد" التي كانت خاضعة لمملكة أشنونا، ثم تقدم إلى أشور ونجح في اغتصاب العرش من أخيه، وبعدئذٍ توسع غربًا حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط وعين أحد ولديه "يسمح – أدد" حاكمًا في ماري وعين الابن الآخر "إشمي – داجان" حاكمًا في إيكالاتوم، وهكذا خضع حوضا دجلة والفرات لسلطان الأشوريين، ولكن لم يدم ذلك طويلًا فقد دأبت القبائل الرعوية التي يحكمها زعماؤها على إحداث القلاقل وتهديد الممتلكات الأشورية، وخاصة بالنسبة لمملكة ماري، كما كانت مملكة أشنونا تحيك الدسائس لمملكة إيكالاتوم، واستطاعت أن تهدد مملكة ماري، وأخيرًا تمكنت مملكة بابل في السنة الثلاثين من حكم ملكها حمورابي من أن تستولي على ماري وأن تدمرها.

٢- العهد الأشوري الوسيط (١٥٢١- ٩١١ ق.م)

ظلت أشور خاضعة لسلطان بابل إلى أن سقطت هذه الأخيرة على يد الحيثيين وبعد أن تراجعوا عنها احتلها الكاشيون، أما أشور فقد ظهر فيها أمراء أقوياء كافحوا طويلًا في جبهات مختلفة: فقد كان الآراميون في الغرب والحوريون "الذين كونوا المملكة الميتانية" في وسط بلاد النهرين[١٠] والحيثيون في الفرات الأعلى والخابور والكاشيون في الجنوب، وقد خرج هؤلاء الأمراء من الأزمات والصعاب التي تعرضوا لها ما يقرب من خمسة قرون، وتمكنوا من تأسيس دولة قوية ساعدها الحظ في عهد ملكها "أشور أوبالط" بحدوث انقسام في البيت الملكي الميتاني إلى فريقين؛ حيث استعان أحد الفريقين المتنازعين بأشور رغم أنها كانت لا تزال خاضعة لسلطان الميتانيين[١١]، وكنتيجة للمؤامرات والدسائس بين الفريقين قتل الملك توشراتا المعارض للفريق الموالي للأشوريين وفر ولده إلى بابل؛ ولكن ملكها "بورنا بورياش" تمسكًا بمبدأ الحياد رفض منحه حق اللجوء السياسي؛ فاضطر إلى الذهاب إلى البلاط الحيثي؛ بينما اقتسمت أشور ودولة صغيرة في حوض دجلة الأعلى تدعى "آلشي" بلاد ميتاني، وهكذا لم يتمكن "أشور أوبلط" من أن يحرر بلاده من سيطرة الميتانيين

فحسب؛ بل وتمكن من أن يتسبب في القضاء على الدولة التي كان آباؤه يدفعون لها الجزية "دون أن يطلق سهمًا واحدًا"، وقد اتبع سياسة حكيمة مع جيرانه فتصاهر مع ملك الكاشيين "الذي تزوج بابنته"[١٢] أملًا في أن يصبح حفيده يومًا ملكًا على بابل. وتلا أشور أوبالط ثلاثة ملوك بجهود مشكورة في تأمين حدود بلادهم،بل وتمكن آخرهم "أدد نيراري" الأول من أن يضم مساحات أخرى من أرض الجزيرة إلى مملكته، على أن أعظم ملوك هذه الأسرة كان دون شك "شلمنصر الأول" رابع خلفاء أشور أوبلط؛ إذ استولى على منطقة أرمينياالجبلية "أورارتو" وبلاد الجوتيين وهزم ملك "هاني جلبات" وجنودها المرتزقة من الحيثيين وغيرهم. وعندما اعتلى "توكلتينورتا" خليفة "شلمنصر الأول" على عرش أشور تمكن من الاستيلاء على بابل بعد أن هزم ملكها الكاشي "كاشتلياش"؛ ولكن مع هذا حدثت فتنة في أشور قتل فيها الملك وسادت بعد عهده الاضطرابات وتدهورت أحوال الدولة[١٣]، وتوالى على حكم بابل ثلاثة أمراء ضعاف من الموالين لأشور، وبعد ذلك تمكن العيلاميون الذين عادوا إلى القوة بعد ضعف استمر نحو أربعة قرون من الاستيلاء على بابل، ولم يدم حكم العيلاميين لبابل طويلًا؛ لأن قواهم قد أنهكت في فتح المساحات الواسعة من إيران الغربية من جهة وتوالي تهديد الميديين والفرس لهم من جهة أخرى، وسرعان ما أصبح أمراء الأسرة البابلية الرابعة في أيسين على درجة من القوة، بحيث أمكنهم التدخل في شئون أشور، وانتهز "نبوخذ نصر الأول"[١٤] ملك بابل فرصة الانهيار الذي حدث في مملكة العيلاميين بعد عهد ملكها "شيلاق – أنشوشناق" وهاجمها؛ ولكنه هُزم في أول حملة ثم انضم إليه أحد أمراء عيلام فانتصر عليها انتصارًا حاسمًا،كما سبق أن أشرنا،وقد تعرضت أشور لسلسلة من الأزمات بسبب التنازع على العرش وضياع بعض الممتلكات الشرقية من بلادهم،ثم تجمعت حولها المتاعب من جميع الاتجاهات وكادت تقضي عليها لولا نشاط وكفاءة بعض الملوك من خلفاء "أشور – دان الأول"،وما إن اعتلى"تجلات بلاسر الأول"عرش أشور حتى قام بغزوات ناجحة في الشمال الشرقي والشمال ووصل إلى البحر الأسود، ثم اتجه غربًا نحو سواحل آسيا الصغرى وفينيقية،وبعد ذلك أخضع بابل فأصبح يحكم معظم أنحاء الشرق الأدنى من البحر الجنوبي إلى البحر الشمالي وسواحل البحر المتوسط. وتوالى بعده على الحكم ملوك ضعاف تدهورت في أيامهم أحوال المملكة، وأصبح الآراميون يهددون حدودها في الغرب،إلى أن قدر لها بعد ذلك أن تنهض من جديد[١٥].

٣- **العهد الأشوري الحديث**: يقسم هذا العهد إلى دوري نهوض تخللتهما فترة من الضعف، وهذان الدوران هما:-

أ- **الإمبراطورية الأشورية الأولى**: حينما تسلم الحكم "أدد نيراري الثاني" عمل على تقوية جيشه وبدأ في إخضاع بعض الأقاليم المجاورة، ثم تحالف مع مملكة بابل ونظم شئون الدولة، ولما تبعه "توكلتينورتا الثاني" زاد من تأمين طرق مواصلاته التجارية والعسكرية مع أطراف مملكته وشيد بعض القلاع والحصون.

ويعد خلفه "أشور ناصريال الثاني"رغم شهرته بالقسوة من أعظم ملوك الأشوريين؛ فقد وصلت فتوحاته إلى الجبال الشرقية والشمالية، وأدخل تحسينات كثيرة في الجيش والإدارة[١٦]، حيث استخدم الخيالة على نطاق واسع، وقسم بلاده إلى ولايات يحكم كل منها أحد الولاة، وجدد بناء مدينة كالح "نمرود"[١٧]وبنى فيها قصرًا فخمًا زينه بألواح كبيرة من الرخام نقشت عليها مناظر تمثله في حروبه وصيده وقدوم الأمراء الخاضعين له ومعهم الهدايا والجزية، ومن آثاره كذلك مسلة ضخمة عثر عليها في نمرود، وهي تحمل نقوشًا تبين أعماله خلال السنوات الخمس الأولى من حكمه.ولم يكتفِ ولده وخليفته "شلمنصر الثالث" بالإمبراطورية الواسعة التي خلفها له والده، بل أضاف إليها مستعمرات جديدة وصلت إلى منابع دجلة والفرات، وقد قام بسلسلة من الحملات الحربية في سورية وفلسطين على أحلاف الآراميين واليهود[١٨].كما قام بحملات في الأناضول وهضبة إيران الشمالية وهاجم بعض القبائل العربية،وفي أواخر حكمه ثار عليه أحد أبنائه وأحدث بعض الاضطرابات التي أدت إلى فقدان هيبة الدولة في الداخل والخارج، ومع أن ولي عهده "شمشي أدد الخامس" تغلب على أخيه الثائر؛ إلا أن تلك الاضطرابات كانت سببًا في فقدان أشور لبعض مستعمراتها البعيدة. وفي تلك الأثناء ظلت بابل على ولائها لأشور وتحسنت العلاقات بينهما بزواج ملك أشور من أميرة بابلية تدعى "شمورامات" حظت بشهرة كبيرة حتى عرفها اليونان باسم "سميراميس"، وقد صارت وصية على ولدها "أدد نراري الثالث" الذي اعتلى العرش وهو صغير السن بعد وفاة والده.وقد توالى على حكم أشور ملوك ضعاف، بعد ذلك حدث في عهد أحدهم "أشور دان الثالث"كسوف للشمس[١٩]،وتفشى في زمنه وباء الطاعون،واستمر تدهور الدولة حتى حدثت في العاصمة "نمرود" ثورة داخلية، تولى الملك على أثرها "تجلات بلاسر الثالث" الذي أعاد إلى المملكة مجدها، وبدأ عهد الإمبراطورية الثانية.

ب– الإمبراطورية الأشورية الثانية:

بعد أن توفي "أدد نراري الثالث" تتابع على العرش أولاده الأربعة الذين كان أصغرهم "تجلات بلاسر الثالث"، وقد جاء هذا على العرش بعد مقتل أخيه "ثالث أبناء أدد نراري" في الثورة الداخلية التي نشبت في نمرود، وقد أثبت هذا أنه كان جديرًا بالحكم؛ إذ عرف مواطن الضعف في الدولة وعمل على علاجها ثم أخذ يعد العدة لإعادة مجد أشور، واستطاع أن يبلغ بإمبراطوريته إلى حدود لم تصلها من قبل؛ حيث أخضع الدولة البابلية وضمها إلى إمبراطوريته وأعلن نفسه ملكًا عليها، كذلك تمكن هذا الملك من اجتياح معظم المدن السورية وحاصر دمشق إلى أن أسقطها وقتل ملكها، كما تمكن أيضً ا من أن يؤمن حدوده الشمالية ضد غزوات بعض القبائل الأرمينية،وهكذا قضى"تجلات بلاسر الثالث" معظم حكمه في الحروب ولكنه ترك إمبراطورية واسعة [٢٠].وفي عهد ولده "شلمنصر الخامس" قام ملك إسرائيل "هوشع" بتحريض من المصريين بمحاولة التخلص من السيطرة الأشورية؛ فأسرع شلمنصر وحاصر السامرة لمدة ثلاثة أعوام؛ولكنها لم تسقط

إلا على يد خلفه "سرجون الثاني"؛لأنه اضطر إلى العودة إلى أشور لحدوث بعض المؤامرات فيها، وقد انتهت هذه بقتله بعد حكم دام أقل من خمس سنوات[٢١]،وفي بداية عهد خليفته "سرجون الثاني" قامت الثورات في أنحاء كثيرة من الإمبراطورية رغبة في الانفصال عن سيطرتها؛ فاضطر أن يقوم بحملات متتالية تمكن على أثرها من أن يعيد الوحدة إليها وأسرعت بعض المناطق المجاورة لاكتساب عطفه بالهدايا مثل قبرص، ولما شعر بأن مصر تبذل جهدها في إقامة بعض الأحلاف مع أمراء سورية وفلسطين؛لكي تحمي نفسها من غزوات أشور المتوقعة، قضى على تلك المحاولات؛حيث أخضع معظم الإمارات السورية والفينيقية وفتح السامرة وسبى أحسن رجالها ونقلهم إلى ميديا.ولما مات سرجون تبعه ولده سنحاريب الذي واجه في بداية حكمه خطرين،أحدهما من بابل التي كانت تحاول الاستقلال، والثاني من ولايات سورية وفلسطين، وكان ملك بابل وملك مصر ولايات سورية وفلسطين بالمساعدة، وكانت بابل بوجه خاص تحرص على تشجيع هذه الولايات حتى تشغله عنها،وقد فطن سنجاريب لذلك فتوجه إليها ودَكَّ حصونها وخربها وعين ابنه "أسرحدون" واليًا على جنوب العراق، ثم قضى على دويلات أهل البحر في أقصى الجنوب[٢٢] ؛ لكثرة ثوراتهم مستعينًا في ذلك بسفن صنعها له صناع مهرة من الفينيقيين واليونانيين، وحينما علم بحدوث تحالف بين أمراء سورية وفلسطين بمساعدة مصر توجه إلى منطقة الخطر بجيش كبير وغزا المدن الساحلية في فلسطين ثم حاصر بيت المقدس وأخضعها، ولكن وباءً خطيرًا انتشر بين قواته؛ فاضطر إلى العودة إلى بلاده بفلول جيشه، وخاصة بعد وصول الأنباء بحدوث اضطرابات فيها، ومات بأيدي أبنائه الذين طمعوا في العرش. وبعد مقتل سنحاريب تنافس أبناؤه على العرش، ثم فاز به ولده "أسرحدون" الذي استطاع أن يقضي على الفتنة سريعًا، ثم وجه همه للانتقام من مصر لتدخلها في شئون مستعمراته في سورية وفلسطين، وقد استعد ملكها النوبي طهرقة لملاقاته كما أرسل بعض الإمدادات إلى حلفائه في سورية وفلسطين؛ فلما زحف الملك الأشوري نحو مصر استطاع أن يصل إلى شرق الدلتا؛ ولكن المصريين استماتوا في الدفاع حتى تمكنوا من هزيمة الأشوريين وردوهم عن بلادهم؛ ففقدت الجيوش الأشورية هيبتها واضطر الملك إلى الاستعداد لإعادة الكرة حرصًا على سمعة الإمبراطورية[٢٣].

أما طهرقة فقد اطمأن إلى أن الأشوريين لن يعودوا إلى مصر ولم يستعد لملاقاتهم؛ إلا أن الملك الأشوري عاد سريعًا وظهر فجأة في سورية، وعاقب ملك صور على انضمامه لمصر، ثم أسرع مخترقًا الصحراء،ولم يكن طهرقة متأهبًا للقائه فوصل الجيش الأشوري إلى الوجه البحري واضطر طهرقة إلى التحصن بمنف؛ ولكن الأشوريين أسرعوا وراءه وهزموا الجيش المصري وفتحوا منف؛[٢٤] ففر طهرقة إلى طيبة في الجنوب واستعمر الأشوريون الدلتا، ثم عاد أسرحدون إلى بلاده حيث أصيب بمرض مات على أثره. وحدث اختلاف على العرش من جديد، وانتهى هذا الاختلاف بتعيين أشور بانيبال ملكًا؛ بينما عين أخاه الأكبر ملكًا على بابل،

ولم يكد أشور بانيبال يجلس على العرش حتى وصلت أنباء ثورة المصريين ضد أشور؛ وذلك لأن بعض الأمراء اتفقوا مع طهرقة على أن يعود هذا الأخير إلى الدلتا ويقتسم السلطة معهم[٢٥]، فجرد أشور بانيبال حملة كبيرة سارت إلى مصر، ولم تكتفِ هذه الحملة باحتلال الدلتا؛ بل سارت إلى طيبة وخربتها وعاد طهرقة إلى عاصمته في النوبة العليا "نباتا" وبقي بها إلى أن مات، ومع ذلك لم يبقَ الأشوريون بمصر طويلًا بل عادوا إلى بلادهم واكتفوا بأخذ الجزية؛ فلما تولى عرش نباتا "تانويت أماني" عاد إلى احتلال مصر من جديد، ولم يجد أشور بانيبال بدًّا من أن يرسل جيشًا إلى مصر؛ فاضطر تانويت أماني إلى الفرار إلى عاصمته نباتا، وخرب الجيش الأشوري طيبة للمرة الثانية[٢٦].وقد استمر التعاون بين أشور بانيبال وأخيه ملك بابل نحو عشرين عامًا؛ ولكن هذا الأخ ثار بعد ذلك فجرد أشور بانيبال حملة تأديبية ضده تمكنت من القضاء عليه وفتحت بابل عنوة، وبعدئذٍ تقدم الأشوريون جنوبًا وأخضعوا القبائل العربية والآرامية التي ساعدت بابل في ثورتها، وهاجموا العيلاميين وفتحوا عاصمتهم سوسة كذلك[٢٧].وبعد وفاة أشور بانيبال حدثت منازعات حول العرش، وتمكن بعدها ولده "أشور – إتل – إيلاني" من الفوز به، ولكنه كان ضعيفًا فانفصلت عن المملكةبعض ممتلكاتها مثل مصر وكثير من المدن الساحلية في فلسطين وسورية، كما انفصلت عنها مدن أرمينية، وشن أحد ملوك الميديين هجومًا على أشور فصده الجيش الأشوري وهزم جيشه وقتله، وفي بابل تكونت أسرة جديدة تعرف باسم "الأسرة البابلية الأخيرة" أو "المملكة الكلدانية"، كما انتهز القائد الأشوري فرصة إقامة الملك في نمرود؛ فأعلن تمرده عليه في نينوى وعزله؛ ولكن أخا الملك حارب هذا القائد وقضى عليه ثم استأثر بالسلطة. وقد أثرت الحرب الداخلية على سمعة المملكة وهيبتها؛ فانفصلت أماكن أخرى كثيرة عنها، واستطاع "كي أخسارCyaxares" ملك الميديين أن يستولي على شمال إيران وشمال بلاد النهرين، ثم توغل إلى سهول أشور حيث قامت بينه وبين الجيش الأشوري حروب طاحنة، وبعد أن اتفق مع ملك بابل هاجما العاصمة فسقطت في أيديهما بعد حروب عنيفة، واقتسما مملكة أشور، حيث تولى استولى الميديون على قسمها الشمالي الشرقي، واستولى البابليون على جنوبها وأرسل ملك بابل ولده "نبوخذ نصر" ليتتبع فلول الجيش الأشوري التي كانت قد هربت إلى "حران"، وانتصر "نبوخذ نصر" وقضى على بقية الجيش الأشوري، ثم واصل سيره غربًا واحتل المقاطعات التي كانت تخضع للأشوريين من قبل، وقد تقابل مع الملك المصري نخاو الذي كان قد تقدم إلى سورية ودارت بين الاثنين معركة حاسمة بالقرب من قرقميش، انتصر فيها نبوخذ نصر وتراجع الجيش المصري إلى بلاده[٢٨].وكانت أشور تعترف اعترافا صريحا بأن الحكم هو تأميم القوة لذلك فإن ما لها من فضل على قضية التقدم إنما كان في فن الحرب.فهي التي نظمت فرق المركبات، والفرسان، والمشاة، والمهندسين الذين يقوّضون الأبنية؛ وقد وضع الآشوريون لهذه الفرق نظاما يسهل معه تحريكها وتوجيهها من ناحية إلى أخرى في ميدان القتال وكانت له آلات للحصار لا تقل في قوتها عما كان منها عند الرومان، وكانوا يجيدون فهم الفنون الحربية الخاصة بتعبئة الجنود وحركاتهم [٢٩].

وكانت القاعدة الأساسية التي تقوم عليها تحركاتهم العسكرية هي السرعة التي تمكنهم من مهاجمة كل قسم من أقسام الجيوش المعادية على انفراد– ألا ما أقدم هذا السر الذي أفاد منه نابليون أعظم الفائدة! وتقدمت صناعة الحديد عندهم إلى حد أمكنهم أن يلبسوا الجنود حلاً حديدية سابغة كحلل فرسان العصور الوسطى. وحتى الرماة وحملة الرماح كانوا يلبسون على رؤوسهم خوذات من النحاس أو الحديد[٣٠]،

وأرهاطا محشورة حول الحقوين، ومجنات ضخمة، ونطاقات من الجلد المغطى بأسفاط معدنية،وكانت أسلحتهم السهام والرماح، والسيوف والقصار، والصوالج والهراوات المنتفخة الرؤوس، والمقاذيف والبلط الحربية. وكان أكابر القوم يحاربون في عربات في طليعة الجيش، يقودهم في العادة مليكهم نفسه وهو راكب في عربة ملكية، ولم يكن القواد قد تعلموا وقتئذ أن يموتوا في فراشهم الفن الآشوري الفنون الصغرى – النقش الغائر – التماثيل – البناء – صفحة من "سردناباس" بلغت أشور في آخر عهدها ما بلغته معلمتها بابل في الفنون، وبزتها في النقوش الغائرة. فقد حفزت الثروة العظيمة التي تدفقت على أشور وكلخ ونينوى الفنانين والصناع الآشوريين إلى أن يخرجوا للإشراف ونساء الأشراف، وللملوك وقصور الملوك، وللكهنة والهياكل، حليا مختلفة الأشكال، فصهروا المعادن وبرعوا في تشكيلها وصناعتها كما نشاهد ذلك في أبواب بلاوات العظيمة،وفي الأثاث الفخم الجميل، الشكل الدقيق الصنع المتخذ من أثمن الأخشاب، والمقوى بالمعادن، والمرصع بالذهب والفضة والبرنز والأحجار الكريمة [٣١].

ثانياً: الحالة الصناعية والاقتصادية

وكانت صناعة الفخار عندهم منحطة، وفي الموسيقى لم يزيدوا على ما أخذوه منها عن البابليين، ولكن التصوير بالطلاء الممزوج بالغراء وصفار البيض الزاهي الألوان صبح من الفنون الآشورية الخاصة التي انتقلت إلى بلاد الفرس فبلغت فيها حد الكمال. وكان التصوير في أشور كما كان على الدوام في بلاد الشرق القديم فنا ثانويا تابعا للحرب يسير في ركابها، وأخرج فن النقش الغائر في أيام المجد أيام سرجون الثاني وسنحريب وعسرهدن وأشور بانيبال وبتشجيع هؤلاء الملوك روائع هي الآن في المتحف البريطاني، على أن من أجمل آياته تحفة يرجع عهدها إلى أيام أشور بانيبال الثاني. وهي من المرمر النقي وتمثل مردك إله الخير يهزم تيمات الخبيث إله الفوضى [٣٢].

وتجدر الاشارة الى وجود حلي ذهبية اكتشفت في مدينة اشور زنتها ٩١ كغم وجدت في البنك المركزي العراقي ويذكر مختصون ان مكائن الذهب والمصانع الايطالية تعجز عن صناعة مثيلتها وكان هذا الذهب خاصة بالاميرات الاشوريات .

أما صور الآدميين المحفورة فهي جامدة خشنة وكلها متماثلة لا فرق بين الواحدة منها والأخرى،كأنما قد وضع لها نموذج واحد كامل وفرض عليها أن تحاكيها في جميع العهود، ذلك أن للرجال جميعهم رؤوسا ضخمة وشوارب غزيرة، وبطونا كبير،وأعناقا لا تكاد تراها العين،وحتى الآلهة نفسها قد صورت بهذه الصورة الآشورية لا تستتر إلا قليلا.ولا تظهر حيوية الرجال في صورهم إلا في أحوال جداً نادرة،منها قطعة المرمر المنقوشة التي تمثل الأرواح تتعبد أمام نخلة هندية،وفي اللوحة الجيرية التي تمثل شمسى أداد السابع والتي عثر عليها في كلخ [٣٣].

نهاية الحكم السياسي

شكلت علاقات بابل بآشور في أواخر عهد آشوربانيبال وعقب وفاته عدة عوامل، وهي اهتزاز الحدود الآشورية تحت ضغط القبائل الهندوآرية والجبلية من السميريين والسكيثيين والماذيين، واهتزاز العرش الآشوري نتيجة للخلافات الداخلية في البيت المالك[٣٤]،وازدياد حقد البابلين والكلدانيين بعد الانتقامات العنيفة التي أنزلها الآشوريون بهم مرة بعد مرة، ثم انتقال الحكم في بابل إلى أسرة كلدانية قوية استطاعت أن تستغل الظروف المحيطة بها وهي الأسرة الحادية عشرة والأخيرة. وأسس الحكم البابلي الجديد كلداني يدعى نابوبولاسر "٦٢٦ – ٦٠٤ق.م" يحتمل أنه كان ولدًا لأمير يدعى كاندالونو عينه آشوربانيبال على بابل بعد مقتل أخيه، وعمل قائدًا في الجيش الآشوري وحاكمًا على الأقاليم الجنوبية، ثم عمل لحسابه فزحف على بابل وولي عرشها بعد تفكك أواصر البيت الآشوري الحاكم، ولكن لم يتعد سلطانه في بداية أمره ما حولها[٣٥].

المحور الثاني :– الاثر الحضاري

١ – النقوش:أما النقوش التي تثير إعجابنا بحق فهي نقوش الحيوانات، وما من شك في أن الفن قديمه وحديثه لم ينجح في نحت الحيوانات نجاح الفن الآشوري، إن الألواح تكرر أمام الأعين مناظر مملة تمثل الحرب والصيد، ولكن العين لا تمل قط من النظر إلى حركات الحيوانات القوية ونفورها الطبيعي، وتصويرها البسيط الذي لا تكلف فيه، كأنما الفنان الذي حرم عليه أن يصور سادته في حقيقتهم وفرديتهم قد وهب كل علمه وحذقه لتصوير الحيوانات، وهو يصور منها أنواعا جمة لا عديد لها– يصور آسادا، وخيلا، وحميرا، ومعزا، وكلابا، ودببة، وظباء، وطيورا، وجنادب[٣٦]، ويصورها في كل وضع من أوضاعها ما عدا سكونها. وما أكثر ما يمثلها وهي تعاني سكرات الموت، ولكنه حتى في هذه الحال يجعلها مركز الحياة في صورته وفنه،وهل هناك ما هو أروع من خيل سرجون الثاني في نقوش خراساباد[٣٧]، أو اللبؤة الجريحة التي عثر عليها المنقبون في قصر سنحاريب في نينوى، أو اللبؤة المحتضرة المنقوشة على حجر المرمر والتي استخرجت من قصر

أشور بانيبال[٣٨].كما ان مناظر صيد أشورناصربال الثاني وأشور بانيبال للآساد [٣٩]، أو منظر اللبؤة المستريحة [٤٠]، أو الأسد الذي أطلق من الشرك [٤١] ، أو القطعة التي نقش عليها أسد ولبؤة يستظلان تحت الأشجار [٤٢].

٢-الفنون :- من أجمل روائع هذه الفنون في العالم كله تمثيل الأشياء الطبيعية عن طريق الحفر كان عند الآشوريين فنا خشنا يجري على سنن جامدة محددة، وأن أشكاله ثقيلة غير ظريفة، وأن خطوطه قاسية عسرة، وأن العضلات مبالغ فيها كثيرا، وأن كل ما روعي فيها من قواعد المنظور لا يعدو وضع الشيء البعيد في النصف الأعلى من الصورة بنفس الأبعاد التي رسم بها ما هو أقرب منه إلى الراسم، وما وضع منتحته في الصورة، على أن المثالين في عهد سنحاريب عرفوا كيف يعوضون هذه العيوب بما أخرجوه من صور واقعية قوية، مصقولة حسب الأصول الفنية، مثل فيها الفنانون حركاتها أوضح تمثيل، وليس ثمة فيما نقش من الحيوانات شيء يفوقها حتى اليوم. لقد كان فن النقش الغائر للآشوريين ما كان فن النحت لليونان، أو التصوير الزيتي للإيطاليين في أيام النهضة، كان فنا محببا إليهم، يعبر تعبيرا فذا عن مثلهم الأعلى القومي في الشكل وفي الصفات. هذا ما نقوله عن النقش عند الآشوريين[٤٣]،أما النحت فكان أقل منه شأنا وأحط منزلة. ويخيل إلينا أن الحفارين في نينوى وفي كلخ كانوا يفضلون النقش عن التصوير المجسم؛ ولذلك لم يصل إلينا من خرائب الآشوريين إلا قليل من التماثيل الكاملة، وليس فيما وصل إلينا منها ما هو ذو قيمة كبيرة.نرى تماثيل الحيوانات مليئة بالحياة والجلال، كأنها لا تشعر بأنها أعظم من الإنسان قوة فحسب بل تشعر فوق هذا بأنها أرقى منه خُلُقا- وحسبنا أن نذكر منها الثورين اللذين كانا يحرسان مدخل خراساباد[٤٤].

وأما تماثيل الأناسى والأرباب فهي خشنة ثقيلة بدائية، مزينة ولكنها لا فروق بينها، منتصبة ولكنها ميتة، ولعل من الجائز أن نستثني من هذا الوصف تمثال أشورناصربال الثاني الضخم المحفوظ في المتحف البريطاني الآن،ذلك أن في وسع الناظر إليه أن يرى فيه من خلال خطوطه الثقيلة ملكا في كل شبر من جسمه، يرى الصولجان الملكي وقد قبض عليه قبضة قوية،والشفتين الغليظتين تنمان عن قوة العزيمة، والعينين القاسيتين اليقظتين ويرى عنقا كعنق الثور ينذر الأعداء والمزورين في أخبار الضرائب بالشر المستطير،ويرى قدمين ضخمتين متزنتين على ظهر الأرض أكمل اتزان، على أننا يجب إلا نقسو في حكمنا على فن النحت الآشوري؛ فأكبر الظن أن الآشوريين كانوا كلفين بالعضلات المفتولة والرقاب القصيرة، وأنهم لو رأوا نحافة أجسامنا التي تكاد تشبه نحافة أجسام النساء أو رشاقة هرميز الناعمة الشهوانية كما صورها بركسنليز أو عُلّية أبلون لسخروا من هذا كله أشد السخرية [٤٥] .

٣– العمران:– أما من حيث العمارة الآشورية فكيف نستطيع أن نقدر قيمتها إذا كان كل ما بقي منها أنقاضا وخرائب لا تكاد تعلو عما يحيط بها من رمال،ولا تفيد في شيء إلا أن تكون مشجبا يعلق عليه علماء الآثار البواسل ما "يستعيدونه" بخيالهم من أشكال تلك العمائر القديمة. لقد كان الآشوريون كالبابليين الأقدمين لا ينشدون الجمال في مبانيهم بل كانوا ينشدون العظمة والفخامة وينشدونهما في ضخامة الأشكال.وجرى الآشوريون في عمائرهم على سنن الفن في أرض الجزيرة فاتخذوا اللبن مادة أساسية لمبانيهم، ولكنهم اختطوا لأنفسهم طريقة خاصة بهم، بأن اتخذوا واجهاتها من الحجارة أكثر مما فعل البابليون. وورث الآشوريون الأقواس والعقود من أهل الجنوب، ولكنهم أدخلوا عليها كثيرا من التعديل، وأجروا بعض التجارب على إقامة العمد، مهدوا بها السبيل للعمد التي في شكل النساء وللتيجان "الأيونية" اللولبية التي نشاهدها عند الفرس واليونان [٤٦].

ولقد أقاموا قصورهم على مساحات واسعة من الأرض، وكانوا حكماء إذ لم يعلوا بها أكثر من طبقتين أو ثلاث طبقات[٤٧].وكان القصر يتألف عادة من عدد من الردهات والغرف تحيط بفناء هادئ ظليل. وكان يحرس مداخل القصور الملكية حيوانات مهولة من الحجارة، وتصف حول جدران الردهة القريبة من مدخل القصر وتعلق عليها نقوش غائرة وتماثيل تاريخية، وكانت تبلط بألواح المرمر، وتعلق على جدرانها أقمشة ثمينة مطرزة مزركشة، أو تكسى بالأخشاب النادرة الغالية وتحف بها حليات جميلة أما السقوف فكانت تقوى بكتل خشبية ضخمة، تغطى في بعض الأحيان برقائق من الفضة أو الذهب وتصور عليها من أسفلها بعض المناظر الطبيعية [٤٨].فقد شاد أشورناصربال الثاني في كلخ قصرا عظيما من الآجر المبطن بالحجارة، وزينه بالنقوش التي تمتدح التقوى والحروب. وقد كشف راسام عند بلاوات بالقرب من هذا الموضع عن بقايا بناء آخر عثر فيه على بابين كبيرين عظيمين من البرونز دقيقي الصنع [٤٩]. وخلد سرجون الثاني ذكره بأن أقام قصرا فسيحا عند دور– شروكين "أي حصن سرجون" في موضع خراساباد الحالية، وكان على جانبي مدخله أثوار مجنحة، وعلى جدرانه نقوش وقرميد براق، وكانت حجراته الواسعة ذات آثار بديعة النقش والصنع، كما كانت تزينها تماثيل تبعث في النفس الروعة والمهابة. وكان سرجون كلما انتصر في واقعة جاء بالأسرى ليعملوا في هذا الصرح العظيم، وجاء بالرخام واللازورد، والبرنز، والفضة، والذهب ليجمله بها. وشاد حوله طائفة من الهياكل، وأقام من خلفه زجورات من سبع طبقات غطيت قمة أعلاها بالفضة والذهب. وشاد سنحريب في نينوى قصرا ملكيا سماه "المنقطع النظير" يفوق في ضخامته كل القصور القديمة [٥٠].

وكانت جدرانه وأرضه تتلألأ فيها نفائس المعادن والأخشاب والحجارة، وكانت قراميده تنافس في بريقها آيتي النهار والليل؛ وصب له صناع المعادن آسادا وأثوارا ضخمة من النحاس، ونحت له المثالون أثوارا مجنحة من حجر الجير والمرمر، ونقشوا على جدرانه الأغاني الريفية، وواصل عسرهدن توسيع نينوى وإعادة ما تهدم من

عمائرها، وفاقت مبانيه مباني من سبقوه جميعهم في روعتها وفي أثاثها وأدواتها المترفة الثمينة. فقد كانت اثنتا عشرة ولاية تقدم إليه حاجته من الموارد والرجال، ونقل إلى بلاده آراء جديدة عن العمد والنقوش عرفها أثناء إقامته في مصر؛ ولما أتم بناء قصوره وهياكله ملأها بالتحف التي غنمها من جميع بلاد الشرق الأدنى وبما رآه فيها من روائع الفن [٥١].

٤-الحالة الاجتماعية

وكانت أكثر الكتابات البابلية التي وجدت في مكتبة أشور بانيبال هي الكتابات المحتوية على صيغ سحرية لطرد الشياطين واتقاء أذاها، والتنبؤ بالغيب، ومن الألواح التي وجدت كتب في التنجيم، ومنها ما هو قوائم في الفأل السماوي منه والأرضي[٤٩]، وإلى جانبها إرشادات عديدة تهدي إلى طريقة قراءتها، ومنها بحوث في تفسير الأحلام لا تقل براعة وبعداً عن المعقول عن أرقى ما أخرجته بحوث علم النفس الحديث، ومنها إرشادات في التنبؤ بالغيب ببحث أحشاء الحيوانات أو بملاحظة مكان نقطة من الزيت وشكلها إذا سقطت في إبريق ما [٥٢].

وكان من أساليب التنبؤ الشائعة عند البابليين ملاحظة كبد الحيوان،المضحى به وفحصه او كليته او احشائه[٥٣] وقد أخذ ذلك عنهم ما جاء بعدهم من الأمم القديمة. ذلك أن الاعتقاد السائد عند هذه الأمم هو أن الكبد مركز العقل في الحيوان والإنسان على السواء، ولم يكن ملك يجرؤ على شن حرب أو الاشتباك في واقعة، ولم يكن بابلي يجرؤ على البت في أمر من الأمور، أو الإقدام على مشروع خطير، إلا إذا استعان بكاهن أو عراف ليقرأ له طالعه بطريقة من الطرق الخفية السالفة الذكر.

وشكل الماء والنار عنصرين مهمين لطرد العفاريت ، فكان الساحر ياخذ الماء من دجلة والفرات ويرشه على جسم المريض مصحوبا بقراءة تعابير خاصة وتشمل هذه الطقوس حرق مواد كالبصل والتمر والصوف والبذور ورميها بالنار مع تلاوة صيغة سحرية خاصة طالبا فيها حل العقدة وتخليص الانسان وقد يربط بخيوط من صوف الحمل الصغير براس ورقبة اعضاء جسم المريض[٥٤]. وكتبت قصة الخلق البابلية على سبعة ألواح (كل يوم من أيام الخلق على لوح) وقد وجدت في خرائب مكتبة أشور بانيبال في قويونجك (نينوى) في عام ١٨٥٤م. وهذه الألواح نسخة من قصة انحدرت إلى بابل وأشور من بلاد سومر. والمؤلف يريد بقوله: "إن استبدال العماء بالفوضى أسطورة" إن الفوضى لا تزال تضرب أطنابها في الأرض وأنها لا تكاد تزول منها حتى تعود إليها فقد كانت مكتبة أشور بانيبال تحتوي ثلاثين ألف لوح من الطين مصنفة ومفهرسة، وعلى كل واحد منها رقعة يسهل الاستدلال بها عليه. وكان على كثير منها تلك العبارة التي كانت من شارات الملك الخاصة: "فليحل غضب أشور وبليت...على كل من ينقل هذا اللوح من مكانه...وليمحوا اسمه واسم

أبنائه من على ظهر الأرض"[٥٥].وكثير من هذه الألواح منسوخة من أخرى أقدم منها لم يبين تاريخها، تكشف أعمال الحفر عنها في كل يوم. وقد أعلن أشور بانيبال أنه أنشأ مكتبة ليمنع الآداب البابلية أن يجر عليها النسيان ذيله. ولكن الألواح التي يصح أن تسمى الآن أدبا لا تتجاوز عددا قليلا منها، أما معظمها فسجلات رسمية وأرصاد يقصد بها التنجيم والفأل والطيرة والتنبؤ بالمستقبل، ووصفات طبية،وتقارير ورقى سحرية،وترانيم وصلوات وأنساب للملوك والآلهة [٥٦].

٥- الحالة العلمية

وأقل هذه الألواح مدعاة إلى الملل لوحان يعترف فيهما أشور بانيبال بحب الكتب والمعرفة، وهو اعتراف يزري به في أعين مواطنيه، والغريب أنه يكرر فيهما هذا الاعتراف ويصر عليه إصرارا: "أنا، أشور بانيبال، فهمت حكمة نابو[٥٧] وتوصلت إلى فهم جميع فنون كتابة الألواح. وعرفت كيف أضرب بالقوس وأركب الخيل والعربات، وأمسك أعنتها ... وحباني مردك، حكيم الآلهة، بالعلم والفهم هدية منه ... ووهب ليإتورتوشرجال الرجولة والقوة، والبأس الذي لا نظير له.

وعرفت صنعة أدابا الحكيم، وما في فن الكتبة كله من أسرار خفية؛ وقرأت في بناء الأرض والسماوات وتدبرته، وشهدت اجتماعات الكتبة وراقبت البشائر النذر؛ وشرحت السماوات مع الكهنة العلماء؛ وسمعت عمليات الضرب والقسمة المعقدة، التي لا تتضح لأول وهلة، وكان من أسباب سروري أن اكرر الكتابات الجميلة الغامضة المدونة باللغة السومرية، والكتابات الأكدية التي تصعب قراءتها ... وامتطيت الأمهار،ركبتها بحكمة حتى لا تجمح، وشددت القوس، وأطلق السهم، وتلك سمة المحارب، ورميت الحراب المرتجفة كأنها رماح قصيرة ... وأمسكت بالأعنة كسائق المركبات...ووجهت ناسجي دروع الغاب ومجناته كما يفعل الرائد، وعرفت العلوم التي يعرفها الكتبة على اختلاف أصنافهم حينما يحين وقت نضجهم، وتعلمت في الوقت نفسه ما يتفق مع السيطرة والسيادة، وسرت في طرائقي الملكية".ومن أروع الآثار الأدبية التي خلفتها أرض الجزيرة اثنا عشر لوحاً محطماً وجدت في مكتبة أشور بانيبال، وهي الآن في المتحف البريطاني. وقد كتبت على هذه الألواح ملحمة جلجامش الذائعة الصيت، وتتألف من طائفة من القصص غير الوثيقة الاتصال ضمت بعضها إلى بعض في عهود مختلفة يرجع بعضها إلى أيام السومريين أي إلى ما قبل المسيح بثلاثة آلاف عام. ومن هذه القصص النص البابلي لقصة الطوفان، وكان جلجامش بطل القصة السالفة الذكر حاكماً أسطورياً لأروك أو إرك وهو من نسل شمش- نيشتين الذي نجا من الطوفان ولم يمت قط. ويدخل جلجامش في القصة في صورة مركبة من صورتي أونيس وشمشون، فهو طويل القامة ضخم الجسم، ومفتول العضلات، جرئ مقدام، جميل يفتن الناس بجماله[٥٨].

٦- الحالة الدينية :- كانت القبائل والجيوش تحمل أوثانها أو صور آلهتها أو رموزها الدينية المقدسة معها في الحروب. تتبرك بها وتستمد منها العون والنصر. ولما حارب الأعراب الملك "سنحاريب" ملك آشور، حملوا أصنامهم: "دبلت" "دبلات" Diblat، و"دية" Daja = Daia \\و"نوخيا" Nuhaiaو"إبيريلو" Ebirillu و"عثر قرمية" AtarKurumaia معهم لتدافع عنهم، ولتحارب معهم الآشوريين.ولكن الآشوريين غلبوهم وانتصروا عليهم وأخذوا غنائم وأسرى منهم، كان في جملتها هذه الأصنام المسكينة، التي وقعت في الأسر وبقيت في أسرها إلى أن توفي "سنحاريب" وتولى ابنه "أسرحدون" الحكم، فاسترضى الأعراب هذا الملك وجاءوا بهدايا كثيرة؛ رجاء استرضائه لإعادة أصنامهم إليهم، فرقَّ على حالهم وأعاد إليهم تلك الأصنام السيئة الحظ، التي كتب عليها أن تسجن، وتمكنت من استنشاق ريح الحرية من جديد[٥٩].وسقطت أصنام الأعراب مرة أخرى في أسر الآشوريين، وذلك في أيام "أسرحدون"، فلما انضم "لبلي" "ليل" Laili ملك "يادي" "يادع" "يدي" "يدع" Jadi = 'Jadi' إلى الثائرين على حكم هذا الملك، لحقت بهم الهزيمة، وسقطت أصنامه أسيرة في أيدي الآشوريين، وأخذت إلى "نينوى"، فلم يجد الملك "ليل" "ليلي" أمامه من سبيل سوى الذهاب إلى عاصمة الملك لاسترضائه، حيث طلب العفو والصفح عما بدر منه، فقبل "أسرحدون" منه ذلك، وتآخى معه، وأعاد إليه أصنامه[٦٠]. وكان في جملة الأصنام التي شاء سوء طالعها الوقوع في أسر الآشوريين الصنم "أترسمين" "أترسمائين" " A – tar– sa– ma– a – a – "Atarsamin "in". و"أتر" هو "عثتر"، فيكون المراد به "عثتر السماء" عثتر السماوات، ويدل ذلك على أنه إله السماء. وكان قد وقع أسيرًا في أيديهم أيام الملك "أسرحدون"، فلما توفي الملك وانتقل عرشه إلى ابنه "أشور بانبال"، جاء Uaite العربي إليه، وهو أحد سادات القبائل إلى الملك، وصالحه وأرضاه، فأعاد إليه أصنامه ومنها الصنم المذكور. وطالما كان يعرض حمل المحاربين أصنامهم معهم في الحروب إلى وقوع تلك الأصنام في الأسر، تقع كما يقع الإنسان في الأسر. بل يكون أسر الأصنام في نظرهم أشد وقعًا في نفوسهم من أسر الإنسان. إنها آلهة تدافع وتحامي، إنهاآلهة القبيلة كلها، فأسرها معناه في عرفهم أسر القبيلة كلها، فأسر الآلهة شيء كبير بالنسبة إلى القبيلة. وقد أشرت إلى استيلاء الآشوريين على أصنام قبائل "عربي" التي حاربتهم، وإلى أخذها أسيرة إلى أرض آشور، وإلى مفاوضة الأعراب معهم على الصلح في مقابل إعادة تلك الأصنام إليهم. فلما أعيدت الأصنام إلى أصحابها، كتب الآشوريون عليها كتابة تخبر بوقوعها في الأسر، وبانتصار آلهة آشور عليها؛ لتكون نذيرًا للمؤمنين بها، يحذرهم من حرب ثانية توقع هذه الأصنام في أسد جديد. وقد أشير إلى "خيل اللات" في مقابل "خيل محمد"، في شعر لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، إذ قال: لعمرك إني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل الله خيل محمدوكان الجمل –وليس الحصان– هو الذي يذكر عند جمع الجزية التي كان يفرضها الفاتحون الآشوريون على العربي والعربية، فالملك الآشوري "تجلات بلاسر الثالث" "٧٤٥-٧٢٧ق. م" يفرض على الملكة "شمسي" جزية "جمالًا ونياقًا"[٦١]، وإن رأينا

الخيل، بجوار الجمال، في الجزية التي قدمت للملك "سرجون الثاني" "٧٢٢-٧٠٥ق. م"، والذي جاء بعد سليمان "٩٦٠-٩٢٢ق. م"بأكثر من قرنين ونصف من الزمان، وفي جيش "إكزركسيس الأول" "٤٨٦-٤٦٥ق.م" الذي كان متجهًا إلى بلاد اليونان لفتحها، ظهر العرب يركبون جمالا،وأخيرًا، فلقد أنكر"سترابو" وجود الحصان في شبه الجزيرة العربية[٦٢].سيطر الآشوريون على تلك المناطق (شمالي العراق) وكانت عاصمتهم (نينوى) ثم امتد نفوذهم إلى كل العراق وبلاد الشام وأجزاء من مصر، وأشهر ملوكهم(شلمنصر الثالث)و(آشوربانيبال) واستمروا في عبادة الأوثان،ولم يتعظوا بما حل بسابقيهم.ولم يعملوا عقولهم، أرسل الله إليهم نبيه يونس عليه السلام[٦٣].

الخاتمة

تمثل بلاد العراق القديم الجناح الشرقي لمنطقة الهلال الخصيب وهي المنطقة التي نجح الانسان في صنع معالم الحضارة الانسانية المستقرة فيها لأول مرة في تاريخ الانسانية وذلك في كافة المجلات الاقتصادية والحضارية والسياسية ، والواقع ان بلاد العراق ومصر تمثلان المحورين الحضاريين الرئيسيين في منطقة الشرق الادنى .وتتميز حضارة الانسان في العراق بظاهرة تعدد الانماط الحضارية التي وضعها الانسان ، فقد بدأت بالحضارة السومرية تلتها نماذج متعددة من الحضارات كالاكدية والبابلية والاشورية .وظهرت معالم الابداع الحضاري في ابتكار الخط المسماري ، وفي مجال التعبير الفني فقد انتج انسان بلاد العراق القديم العديد من النماذج المعمارية الفنية الرفيعة المستوى.اما في المجال السياسي فقد توصل الانسان السومري الى الفكرة الديمقراطية الاولية كما تمكن الانسان الاشوري من تحقيق الانتصارات العسكرية الضخمة في الشرق الادنى ، والواقع ان بلاد العراق تعتبر مدخلا شرقيا هاما يتجه بالحضارة الانسانية في الطريق من الشرق الى الغرب ، وبذلك يكون العراق القديم قد استطاع ان يتصدر ركب الحضارة الانسانية وان يهدي للبشرية الكثير من عوامل التقدم في العلوم والفنون والآداب مما ساعد على اعلاء شأن الحضارة الانسانية ، ويختلف العراق عن باقي اقاليم الشرق القديم التي نشأت فيه الحضارات الاصيلة بانه مهد لنشوء جماعات بشرية ودويلات متعددة ذات اكتفاء ذاتي ولاسيما من الناحية الاقتصادية ويمكن تقسيم جغرافية الى قسمين الاقاليم الجنوبية وهو حديث التكوين نسبيا وقد تكون هذا الاقليم من تراكم الرواسب التي كانت تحملها مياه نهري دجلة والفرات مما ادى الى تكوين منطقة منبسطة ومتسعة شمالا وجنوبا.أن طبيعة جغرافية العراق كانت تشجع عن الانفصال ، فكانت هناك وحدات منفصلة تحيط بكل منها حقول ري وصرف يفصلها عن المجتمع التالي الصحراء ، فضلا عن فيضانات النهرين مع ما حملته من خصب ورخاء واستقرار ظلت قبل ان تخفف الجسور ومشاريع الري والصرف من وطأتها وحدتها ، عنيفة مخشية الجانب في غالب امرها ، لعدم انتظام مواسمها ولشدة اندفاعاتها ،وذلك الى حد ان اصبحت عبارة " زوبعة الفيضان " مثلاً استخدمه ادباء العراق

القدماء للتعبير عن كل امر كاسح مدمر . ان وجود الثروة المائية الكبرى لم يسبب نشوء الحضارة تلقائياً ، بل كان للجهود البشرية في ترويض هذه البيئة النهرية للافادة .

قائمة الهوامش

١- عبد العزيز صالح ، الشرق الادنى القديم في مصر والعراق ، مكتبة دار الزمان ، القاهرة ١٩٨٢م ، ص٩ .

٢- طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بلا ط ، بغداد ١٩٥٥، ج١ ، ص٣٢ – ٣٦ .

٣- ول ديوارنت ، ويليام جيمس ، قصة الحضارة ، ترجمة زكي نجيب محمود واخرون ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ج٢ ، ص٢٦٤ . اربيلا : هو الاسم الاغريقي للمدينة الاشورية (اريالو) بمعنى الاله الاربعة وتقع على سفح جبال زاكروس . هنري عبودي معجم الحضارات السامية ، ص٦٣

٤- ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، ج٢ ، ص٢٦٥ .

٥- طه باقر ، مقدمة ، ج١ ، ص٣٥

٦- طه باقر ، مقدمة ، ج١ ، ص٧٤

٧- ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، ج٢ ، ص٢٨١

٨- مالك الفتيان ، دراسات في التاريخ القديم ، منشورات مكتبة عادل ، بغداد ، ٢٠١١ ، ص١٤٨.

٩- محمد ابو المحاسن عصفور ، معالم تاريخ الشرق الادنى القديم ، دار النهضة العربية ، بيروت لا ت ، ص٣٧٤

١٠- طه باقر ، مقدمة ، ج١ ، ص٤٨٥

١١- مالك الفتيان ، دراسات ص١٥٠

12- Th.JMeek,theMiddle AssyrianLaws,in Ancient Near Eastern Texts , 1955,180.

في عهده اعلن هوشع ملك اسرائيل ٧٣٢ – ٧٢٤ ق م العصيان ضد اشور لانه ارسل الى (سوا) ملك مصر ولم يؤدي الجزية الى ملك اشور حسب كل سنة .محمد بيومي ،مهران ، تاريخ العراق القديم ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، ١٩٩٠ ، ص٣٢٧ .

١٣- الفتيان ، دراسات ، ص١٥٨ ،للاستزاده ينظر كتاب العالم الفرنسي باروه (اشور Assur) والذي يقع الى جزئين الجزء الاول خمسة فصول فيما يخص موضوع بحثنا قسم الفصل الاول وتحدث عن تأريخ الاشوريين وعصر الحديد اما الفصل الثاني بعنوان من خابور الى دجلة والفصل الثالث تحدث عن نهاية الاشوريين .

١٤- طه باقر ، مقدمة ، ج١ ، ص٤٨٧ .

١٥- الفتيان دراسات ، ص١٦٢

١٦- احمد سوسة ، حضارة وادي الرافدين ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ح٢ ، ص٩٤.

١٧- طه باقر ، مقدمة ، ج١ ، ص٤٨٨ . كالح ، هي العاصمة الاشورية الثانية تقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة وتبعد ٣٠ كيلو عن جنوب نينوى اسسها شلمنصر الاول ١٤٧٤ – ١٢٤٥ ق.م ، محمد بيومي ، تاريخ العراق ، ص٣٢٧ .

١٨- طه باقر ، مقدمة ، ج١ ، ص٥٠٣-٥٠٤

١٩- حدوث كسوف كلي للشمس سنة ٧٦٣ ق.م رتبت عليه ماشاءات من تعليقات عقائدية خرافية وقد حدث في وقت تفشى فيه طاعون عظيم فتك بالكثير من الناس ، محمد بيومي ، تاريخ العراق ، ص٣٨٠ .

٢٠- الفتيان دراسات ، ص١٨٤

٢١- الفتيان دراسات ، ص١٩٠

٢٢- رمضان عبده علي ، تاريخ الشرق الادنى القديم وحضاراته منذ فجر التاريخ حتى مجيء حملة الاسكندر دار نهضة الشرق ، مصر بلات ، ج١، ص٢٦١ .

٢٣- رمضان عبده ، تاريخ الشرق ، ص٢٦٤

٢٤- رمضان عبده ، تاريخ الشرق ، ص٢٦١

25- Hzeissl ,AeThiopenund Assyrer in Aegyten " Hamburg.1944.p.15

٢٦- احمد فخري ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ، ١٩٦٣ ،ص٢٦٣ .

٢٧- احمد فخري ، دراسات ، ص٢٨٧ .

٢٨- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ج٢ ، ص٢٨٣ . محمد بيومي ، تاريخ العراق ، ص٣٦٧ - ٢٦٨ .

٢٩- ول يوارنت ،قصة الحضارة ، ج٢ ، ٢٨١ ، طه باقر ، مقدمة ، ج١ ، ٥٣٧ ص .

٣٠- طه باقر ، مقدمة ، ج١ ، ٥٣٦ ص (كان استعمال الحديد في ادواته الحربية عنصرا هاما في الحروب بعد ان كانت اسلحتهم مصنوعة من البرونز ، جيمس هنري بريستيد ، انتصار الحضارة ، تاريخ الشرق القديم ، ترجمة احمد فخري المركز القومي للترجمة ، مصر ، ٢٠١١ ، ص٢١٠ -٢١١

٣١- طه باقر ، مقدمة ، ج١ ، ص٥٤٠

٣٢- طه باقر ، مقدمة ، ج١ ، ص٥٤٢؛ اطلق الاشوريون على مركز من مراكزهم التجارية اسم (كاردم) وتعني رصيف او حائط ميناء يقع على نهر او قناة تجمع عنده ضرائب الدخل على الوارد ، محمد بيومي ، تاريخ العراق ، ص٣٨٨ .

٣٣- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ج٢ ، ص٢٩٣

٣٤- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ج٢ ، ص٢٧٧ ، حول سقوط الدولة الاشورية ، ينظر سامي سعيد الاحمد ، لماذا سقطت اشور ، مجلة سومر ، م ٢٧ ، ١٩٧١ ، ص ١١٥ — ١٢٧ .

٣٥- احمد محمد العسيري ، موجز التاريخ الاسلامي منذ عهد ادم عليه السلام . تاريخ ما قبل الاسلام الى عصرنا الحاضر ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ١٩٩٩ ، ص١٨ .

٣٦- ول ديورانت ، قصة الحضارة ،ج٢ ، ص٢٩٠ ؛ سارعت القوات المصرية نحو حران لنجدة اشور ، ورغم ان فرعون لم يوفق في انقاذ اشور فلقد استمرت قواته تسيطر على منطقة عبر النهر وتخوم الفرات وبعد ان استولوا عام ٩٠٦-٩٠٥ على معقل كيموخوا وهزموا البابليين في قورماتي وهما موقعان على الفرات الى الجنوب من قرقميش ، محمد بيومي تاريخ العراق ، ص٤٣٢ .

٣٧- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ج٢ ، ص٢٩٠

٣٨- عبد العزيز ، الشرق الادنى ، ج١ ، ص٥٣٣ .

٣٩- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ص٢٩٠

٤٠- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ص٢٩٠

٤١- سامي سعيد الاحمد ، المعتقدرات الدينية بالعراق القديم ، سلسلة الموسوعة التاريخية ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٨ ، ص٢٤

٤٢- رمضان عبده علي ، تاريخ الشرق الادنى ، ج١ ، ٢٥٣ص

43- Loud khorsqbad ,LIi Encyelopdie photographique Del"Art,li,lf

٤٤- ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، ج٢ ، ص٢٩٢ .

٤٥- ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، ج٢ ، ص٢٩٣

٤٦- ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، ج٢ ، ص٢٩٤

٤٧- طه باقر ، مقدمة ، ج١ ، ص٥١٤ .

٤٨- طه باقر ، مقدمة ، ج١ ، ص٥١٥

٤٩- طه باقر ، مقدمة ، ج١ ، ص٥١٤

٥٠- طه باقر ، مقدمة ، ج١ ، ص٥١٥

٥١- سامي سعيد الاحمد ، المعتقدات ، ص٧٥

٥٢- سامي سعيد ، المعتقدات ، ص٧٦ ؛ لم يكتف الملوك الاشوريين بتوسيع نطاق القصور وتجميل نينوى لكي يضمنوا للمدينة مورداً مائياً كافياً ووصلتها بالانهار وقامت ، على ضفاف نهر دجلة قصور ضخمة هائلة ومعابد ذات ابراج مرتفعة حتى جعل سنحاريب من قصره الفخم مركز يحكم منه العالم الاسيوي بيد من حديد ، جيمس هنري ، انتصار الحضارة ، ص٢١٨-٢١٩ .

٥٣- سامي سعيد ، المعتقدات ، ص٤٥

٥٤- سامي سعيد ، المعتقدات ، ص٦٨-٦٩ للاستزاده ، ينظر : ستينوموسكاني الحضارات السامية القديمة ، ترجمة يعقوب بكر ، دار الرقي ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص٧٨-٧٩

٥٥- ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، ج٢ ، ص٢٨٤

٥٦- ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، ج٢ ، ص٢٨٤

٥٧- ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، ج٢ ، ص٢٨٤

٥٨- ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، ج٢ ، ص٢٨٥

٥٩- نائل حنون ، مدن قديمة ومواقع اثرية ، دراسة في الجغرافية التاريخية للعراق الشمالي خلال العصور الاشورية ، دار الزمان ، فلسطين ، ٢٠٠٩ ، ص١٧٩ .

٦٠- نائل حنون ، مدن قديمة ، ص١٨٠

٦١- سامي سعيد ، المعتقدات ، ص٣٤

٦٢- سامي سعيد المعتقدات ، ص٧٠

٦٣- احمد العسيري ، موجز التاريخ الاسلامي ، ص١٨ .